

من ريب في أن اللغويين والنقاد في العصر العباسي الأول استطاعوا أن يعرضوا الشعر العربي القديم ومقوماته على الشباب في صور أكثر دقة وتفصيلاً من الصور التي كان يتمثلها الشباب العربي في القديم، وبذلك كانوا من عوامل ترسيخ هذه الصور في نفوس الشباب العباسي حتى بين من ألدوا منهم في العروبة والدين.

على كل حال ظلت مقومات الشعر العربي مزدهرة طوال العصر العباسي الأول، وستظل تزدهر في العصور التالية، وخطأ ما يقال من أن بعض العباسيين الأولين من الشعراء ثاروا على عنصر من عناصر هذه المقومات، على نحو ما يقال عن أبي نواس من أنه ثار على عنصر الأطلال الذي كانت تفتتح به بعض القصائد منذ الجاهلية، وأن ثورته تلك كانت ثورة شعبية ضد العروبة وكل يتصل بالعروبة من أطلال وغير أطلال، وهي - في واقعها - كانت ثورة شاعر ماجن أسرف على نفسه في اللذات، فكان يدعو في ضجيج وعجيج وصياح إلى نبذ الحديث عن الأطلال وما يتصل بها من نسيب إلى الحديث عن الخمر التي تستولى على فؤاده وفؤاد أمثاله من المجان. ولم يستجب له أحد من معاصريه، لما تصوّر الأطلال من حنين لا تجف ينايبه أبداً من نفوس العرب في كل زمان ومكان، بل إن أبا نواس نفسه لم يستجب إلى دعوته في افتتاح كثير من قصائده، إذ افتتحها بالحنين إلى الأطلال الدائرة من ملاعب صباه وشبابه، وكأنما أرادت الأطلال أن تتأثر لنفسها منه ومن دعوته وثورته الماجنة، فإذا هي تُجْرى على لسانه بيتاً من أطرف أبياتها وأروعها إذ يقول مخاطباً طللاً:

يا دارُ ما فعلت بك الأيامُ ضامتكِ والأيامُ ليس تُضامُ

وأنت - حتى اليوم - لا تجد في البلدان العربية من لا يعرف أبا نواس ومن عاشوا قبله وبعده من شعراء العربية العظام، حتى المجان منهم بل حتى الزنادقة لسبب طبيعي، وهو أنهم شعراء أمة واحدة وعالم واحد وتراث أدبي واحد، حتى ليصبح من الخطأ أن نقول إن هذا الشاعر من شعراء بغداد وذلك من شعراء دمشق أو القاهرة أو قرطبة، فهم جميعاً شعراء أمة واحدة وأدب واحد تتمحى فيه